3. 1. 4 - المناخ الفكري لإحياء النحو كيفته اللسانية تكييفا خفيفا

ولكن اللسانيات لم تكن مجهولة من إبراهيم مصطفى. فقد اكتشفها طالبا رفقه طه حسين [1] في الجامعة الأهلية. وعرف بعضا منها بحكم انتمائه إلى هيئة التدريس بالجامعة. وقد كان منها زملاء له مستشرقون، ثم هو يناقش بعض آراء المستشرقين في أصل الإعراب [2] ولا يعتمد نتائج بحوثهم الزمانية لأنه يحدس بأنّها غير موفية بالغرض الذي يؤلّف بسببه كتابه.

إن المناخ الفكري الذي ألّف فيه إحياء النحو مناخ كيّفته اللسانيات على نحو خفيّ وإن لم تصبح مرجعا صريحا في تفكيره. وأقلّ تأثير للسانيات التاريخية آنذاك أنّها وسّعت آفاق الدارسين العرب ومنهم إبراهيم مصطفى فأصبحت بعض خصائص العربية تنزّل ضمن ظواهر لغويّة أعمّ بفضل المقارنة بين ألسنة متعدّدة. ونزعم أن من مظاهر هذا التأثير الخفي للسانيات في «إحياء النحو» ما ورد منه في الصفحات 1 و 2 و 3 إذ يبدو لنا أن اللسانيات المقارنة تمثّل الخلفية التي انطلق منها لمناقشة تعريف النحاة العرب للنحو بقطع النظر عن صحّة هذا النقد أو خطئه. وخلاصة رأى صاحب إحياء النحو أن العرب لمّا عرّفوا النحو على أنّه علم يعرف به أواخر الكلم إعرابا وبناء، ولمّا كنا نجد ألسنة بدون إعراب ولها نحو خاص بها نتج عن ذلك عنده ضرورة أن تعريف النحاة العرب للنحو به قصور ونقص لأن النحو أشمل من الإعراب. وهو في هذا الرأي لا ينطلق من قراءة داخلية للتراث النحوي العربي - قد ردّ عليه الخضر حسين [3] - وإنّما يقرأه قراءة خارجية أمدّته اللسانيات التاريخية المقارنة ببعض معطياتها. وهذا في رأينا مظهر من مظاهر تكييف اللسانيات لبحوث إبراهيم مصطفى. فاللسانيات المقارنة هي الأفق العلمي الذي يمدّ

---

1 انظر تقديم إحياء النحو بقلم طه حسين ص - هـ.

2 المرجع السابق ص 47/45.

3 انظر محمد الخضر حسين: دراسات في العربية وتاريخها ص 239.